

اليمن: هل الوحدة خيار أم قدر؟

محمد قواص
صحافي وكاتب سياسي
لبناني

بين الشمال والجنوب (أعلنت عام 1990)، فإن في الجنوب من لم يكن يريد هذه الوحدة وإن كان استكان لها لعلها تأتي له بما لم تحققه الدولة المستقلة. على أن أهل الجنوب اكتشفوا شيئاً فشيئاً أن الأمر لم يكن وحدة بالمعنى المتوخى بل احتلالاً شمالياً للجنوب (لإسيما بعد حرب 1994). أعادت هيمنة صنعاء ورجالها وشيوخها في عهد الرئيس الراحل علي عبدالله صالح على الجنوب إحياء النزعة الانفصالية هناك. كانت تلك النزعة قد خفقت بحكم الخطاب الأخلاقي الودودي لدولة الوحدة وبحكم توزيع المناصب، بشكل صوري، على شخصيات جنوبية، على نحو يزعج عدالة في تقاسم الثروة والسلطة في البلاد.

يلج الحوثيون هذه الأيام إلى أنهم لا يمانعون في انفصال الجنوب. يقدمون واجهة أولى تتمنى بقاء اليمن موحدًا، لكنهم يقولون بالقبول بالحوار مع الجنوبيين (من ضمن خريبتهم الرباعية لليمنيين) والإصغاء إلى طموحاتهم الانفصالية. يجد الحوثيون الوقت ملائمًا لإغراء الجنوبيين بما يطمحون إليه، في وقت تفتح فيه ميليشياتهم جبهة جديدة باتجاه منطقة يافع (التابعة لمحافظة لحج) في هذا الجنوب. على أن انتهازية جماعة الحوثي مناسبة أخرى لتسليط المجره على "قضية الجنوب" بصفتها ركنًا أصيلاً من قضية اليمن لا يمكن تهيمتها وإغفالها داخل معركة اليمن الكبرى.

قد لا يكون الانفصال خيار من يريد لليمن أن يبقى موحدًا، كما أن توقيت طرحه ليس مناسباً هذه الأيام. بيد أن على تلك الوحدة أن لا تكون قهرية تُقرأ من كتاب خشبي، وهي ليست قدراً مُزلاً لا خيار لغيره

صنعت دولة اليمن الجنوبي المستقلة ثقافة وتقاليد عيش وأمزجة باتت جزءاً من تكوين الشخصية الجنوبية. لم يهضم الجنوبيون زحف حزب الإصلاح وما بيته من عقائد الإسلام السياسي داخل منطقة تشبعت مفاهيم مدنية خلال مرحلة دولة الاستقلال، وهم تصدوا ببسالة لزعف الحوثيين الذين يمشرون بعقائد إسلام سياسي آخر داخل مدنها. يعترف كل اليمن بدور الجنوبيين في طرد الحوثيين من الجنوب وملاحقتهم على كافة الجبهات في الشمال، وبالتالي دورهم في رد نفوذ إيران عن اليمن، أي رده عن دول المنطقة أيضاً. فحري الإصغاء جيداً إلى اعتراضهم واحتجاجهم الذي تم التعبير عنه في السنوات الأخيرة في القول والتصريح والظواهر في الشوارع (مليونية في عدن في مايو 2017) إلى أن انفجر قتالا عشية العيد.

قد لا يكون الانفصال خيار من يريد لليمن أن يبقى موحدًا، كما أن توقيت طرحه ليس مناسباً هذه الأيام. بيد أن على تلك الوحدة أن لا تكون قهرية تُقرأ من كتاب خشبي، وهي ليست قدراً مُزلاً لا خيار لغيره. فحتمًا مخرجات الحوار الوطني (2013) التي انقلب عليها الحوثيون تحدثت عن إقامة أقاليم في اليمن، بما يعني اعترافاً بتعدد اليمن داخل الوحدة. فإذا ما كان الجنوبيون لا يرون في اليمن الذي دافعوا عنه بدمائهم ما يلي حاجتهم إلى عيش رغيد واستقرار لا تغر به عقائد واردة من خارج ثقافتهم، فحري الاستماع إليهم بصفتهم شريكاً يسعى لتحسين وتحسين تلك الشراكة.

اصفت الرياض جيداً لحدث عدن، وبات للجنوبيين صوت وجب على اليمنيين وأصدقاء اليمن سماعه. تحدث محمد بن زايد عن فرصة للحوار توفرها السعودية لليمنيين، فهم وحدهم من يبدون إصلاح البيت اليمني ومنع تصدع بنيانه. المعركة ضد الحوثيين تحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى سواعد الجنوبيين، وهنا فقد قد يمكن سز حراكهم الأخير.

أعادت الرياض ضبط اليوصلة اليمنية بعد ساعات عاشتها عدن اختلقت فيها كثير من الأمور. بدا أنه كان لا بد من هذه "الفوضى" لكي يتم تصويب المسار اليمني. كشفت سطور بيان التحالف حول وقف إطلاق النار عن لغة حازمة في شأن لطلما تمت مقاربتة بالصمت حتى انفجرت الأمور. ولم يعد الصمت حكمة الحكماء. وكشفت دعوة السعودية للفرقاء المتنازعين إلى الحوار في الرياض، عن أن هناك فرقاء، وأنهم متنازعون، وأن الأمر يحتاج إلى حوار لطلما تم إغفاله تحت مسوغ أن الأمر ليس أولوية في معركة اليمن الحالية.

استجاب الجنوبيون بسرعة قياسية لدعوة التحالف العربي إلى وقف إطلاق النار والترحيب بالدعوة السعودية إلى الحوار. أدركوا أن خطوطاً حمراء وضعت لحراكمهم، فأعادوا ضبط طموحاتهم وفق اللحظة الإقليمية الدولية الراهنة. ثبت أن حراك الجنوبيين منضبط ومضبوط داخل سياق لن يتجاوز التحالف العربي. وفيما راجت على ضفاف الحراك في الجنوب دعوات إلى إنعاش مطالب انفصالية، فإن عيروس الزبيدي، رئيس المجلس الانتقالي، أعاد التمسك وفق قوانين الممكن والمستحيل، مؤكداً الثقة بالسعودية "التي تأمل منها وتعلق عليها آمال شعبنا وتطلعاته".

وإن ينتقل ولي عهد أبوظبي الشيخ محمد بن زايد آل نهيان إلى السعودية للقاء العاهل السعودي الملك سلمان بن عبدالعزيز وولي عهده الأمير محمد بن سلمان، فذلك أن أمر اليمن هم مشترك انخرط البلدان في معالجة مازقة سويًا، وأن أي نقاش حول مساره ورعاية شؤونه يتم سويًا. فعلى قاعدة الرؤية الواحدة قام التحالف العربي، وعلى هذه القاعدة يتم تميته وتحديث مفاعله.

على هذا، ووفق تلك الرؤى، يلتقي البلدان في اليمن. ولئن روج المروجون بأن أحداث عدن تتم عن تناقض بين البلدين، فإن أي مراقب حصيف يسهل عليه أن يلاحظ أن التكامل قائم بينهما، على نحو يحول الحدث العدني إلى مناسبة لإعادة قراءة المشهد اليمني وفق ما استجد من نقاش عالي النبرة يجري بين اليمنيين.

لم تخف جماعة الحوثي شماعة مما جرى في عدن. أشاعت بسرعة قياسية ما تريده إيران لهذا البلد. استنجدت منابر الجماعة انتهاء الشرعية اليمنية على نحو يجعل من أمر الجماعة الواقع شرعية من ضمن شرعيات أخرى تطل برأسها. اندفع الحوثيون إلى الدعوة لـ"حوار بين اليمنيين" بعيداً عن أي رعاية عربية. وراحت منابره تسوق لقيامه بين قوى الأمر الواقع الأربع: جماعة الحوثي، حزب المؤتمر الشعبي، حزب الإصلاح والمجلس الانتقالي الجنوبي. وفي تلك الدعوة تصاعدت الجماعة بصيانية في مياه تريدها عكرة بين اليمنيين. وهي في تعيينها للصالح لهذه المفاوضات ترسم معالم يمن تستطيع إيران التمكن من عناصره. غير أن تحرك الرياض وأبوظبي أعاد ترتيب أوراق خيل طهران أنها اختلقت. يختلف اليمنيون ربما في كيفية إدارة معركتهم، لكنهم موحدون في رؤيتهم للوحدة، ومن ورائها إيران، بصفتها الخطر الحقيقي على اليمن في حاضره ومستقبله، ومتفقون على أن العمق اليمني هو عربي خليجي، وأن وحدة مصير تجمع اليمن بالسعودية والخليج.

أن يتم الاعتراف بان هناك نزاعاً فذلك أن جدل الجنوب والشمال ليس وليد هذه الساعة. وجب أن لا ننسى أن اليمن الجنوبي كان دولة مستقلة (قامت عام 1967) تتمتع بحدود وسيادة معترف بها دولياً وتتميز في منهجها وعقائدها ورؤاها السياسية عن تلك التي كانت سائدة شمالاً في صنعاء. تعود تلك الحكاية إلى زمن الحرب الباردة وشيوع الشيوعية في العالم والتي كانت لها واجهة تحكم اليمن الجنوبي من عدن. غير أن تلك الرواية تبسيطة تخفي عوامل لا يدركها إلا اليمنيون. وبغض النظر عن الجدل حول حكاية الوحدة



الممكن والمستحيل في اليمن

دولة الجنوب لم تكن قائمة إلا بفضل الاستثمار السوفياتي في تلك الدولة. كذلك كشفت أحداث اليمن الجنوبي في مطلع 1986 والمواجهات بين أنين وشبوة من جهة، والمحافظات اليمنية الجنوبية الأخرى، على رأسها عدن ولحج وحضرموت من جهة أخرى، بداية سقوط الاتحاد السوفياتي وذلك قبل نحو ثلاثة أشهر من حادث المفاعل النووي في تشيرنوبيل في السادس والعشرين من نيسان - أبريل من السنة ذاتها.

ما يدعو إلى الحديث عن مستقبل عدن، هذه الأيام، أحلام اليقظة لدى الداعين إلى استعادة دولة الجنوب. لا يدري هؤلاء أن في الإمكان استعادة مدينة عدن ومحيطها القريب، لكنه يستحيل استعادة دولة الجنوب بمحافظاتها الست (عدن ولحج وأبين وشبوة وحضرموت والمهرة). هناك مكان لعدن في كيان جديد في ظل دولة فيدرالية أو كونفدرالية. لكن أن تعود عدن وحضرموت في ظل دولة واحدة، فهذا من رابع المستحيلات، تماماً مثلما لا يمكن أن يعود اليمن موحدًا ومحكومًا من المركز في صنعاء.

هناك الممكن وهناك المستحيل في اليمن، وذلك بعيداً عن كل الشعارات التي تطلق هذه الأيام من هذا الطرف اليمني أو ذاك. هناك واقع جديد في عدن، تماماً كما هي الحال في كل منطقة من مناطق اليمن. هل يمكن تطوير هذا الواقع وتحول المدينة بمبانيها المهيم بموقعه الاستراتيجي ومطاراتها والمناطق المحيطة بها إلى مكان آمن يمكن أن يعيش فيه اليمنيون في ظروف معقولة؟ هذا هو التحدي المطروح أمام المجلس الانتقالي. أما بالنسبة إلى مستقبل اليمن، فهو لن يتقرر إلا في ظل حوار بين كل الأطراف المعنية من الذين يمتلكون نقلاً على الأرض في مؤتمر وطني قد يعقد في يوم من الأيام.

لن يكون سهلاً تجاوز الحوثيين الذين لديهم وجودهم في الشمال اليمني، ولن يكون سهلاً تجاهل أن الشمال ليس الحوثيين وحدهم، فضلاً عن ذلك، لا مجال للتغاضي عن أن عدن أقرب إلى تعز من حضرموت. فوق ذلك كله، لم يعد سهلاً الجمع بين المدينتين الأكبر، أي بين صنعاء وتعز، وذلك بعدما تركز الشرخ المذهبي بفضل الإخوان المسلمين والحوثيين في بلد لم يعرف في الماضي أي حساسيات في هذا المجال.

يبدو ما شهدته عدن حديثاً، حيث اكتشف ضعف ما يسمى "الشرعية" وهزلها، نقطة تحول يمكن أن تستغل من أجل القول إن في الإمكان استعادة عدن بعضاً من مجدها عبر توفير الخدمات الضرورية والأمن المطلوب لأهلها. هذا هو التحدي الحقيقي أمام المجلس الانتقالي وليس تحدي إعادة الحياة إلى ميت هو دولة الجنوب في مرحلة ما قبل الوحدة.

الاحمر، زعماء حاشد، في الواقع بدأت نهاية صنعاء، كمرکز القرار على صعيد اليمن كله، مع الانقلاب الذي باشره الإخوان المسلمون في شباط - فبراير 2011 على عبدالله صالح. كان هدفهم التخلص منه والحلول مكانه. لم يخف حميد، نجل الشيخ عبدالله الأحمر، طموحاته الرئاسية يوماً. كذلك الفريق علي محسن صالح الأحمر، وهو من أقرباء علي عبدالله صالح، الذي انضم إلى الحملة التي شنتها الإخوان على الرئيس اليمني وقتذاك. توجت الحملة بمحاولة اغتيال لعلّي عبدالله صالح في الثالث من حزيران - يونيو من تلك السنة.

انتهى دور صنعاء قبل أن يدخلها الحوثيون في خريف العام 2014. انتهى الدور عندما تواجه داخل أسوارها أنصار علي عبدالله صالح وأنصار الإخوان المسلمين في 2011. أما دور عدن كعاصمة لدولة الجنوب، فانتتهى على مراحل. في نهاية المطاف، إن تاريخ دولة الجنوب منذ استقلت في العام 1967 وحتى يوم إعلان الوحدة من عدن، كان سلسلة من الحروب الأهلية والاعتقالات ذهب ضحيتها كثيرون. لم يكن اليمن الجنوبي، كدولة مستقلة في يوم من الأيام، سوى كيان غير قابل للحياة. لو لم يكن كذلك، لما كان انهيار "جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية" في كانون الثاني - يناير 1986 إشارة إلى بدء انهيار الاتحاد السوفياتي. عاشت دولة اليمن الجنوبي في ظل الحرب الباردة وانتهت مع انتهاء الحرب الباردة. ما أدى عملياً إلى الوحدة في 1990 هو ما يسمى "أحداث 13 يناير 1986". كشفت تلك الأحداث أن القبائل الماركسية تبقى قبائل، وأن

الاشتراكي اليمني الذي كان يحكم الجنوب قبل الوحدة. في غياب هذا التوازن، بسطت القوانين التي كانت تحكم الجمهورية العربية اليمنية، أي اليمن الشمالي، نفسها على اليمن كله في ظل محاولات واضحة للإخوان المسلمين لإيجاد توازن جديد على صعيد الدولة الموحدة. سعى الإخوان المسلمون، الذين كانوا يشكلون الجناح الأقوى في حزب التجمع اليمني للإصلاح، إلى الحلول مكان الاشتراكي في معادلة تقاسم السلطة. تم لهم ذلك بعد وفاة الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر زعيم قبيلة حاشد الذي كان أيضاً يتزعم حزب الإصلاح.

العودة إلى الوحدة اليمنية لم تعد ممكنة. كذلك، يستحيل إحياء دولة ما كان يسمى اليمن الجنوبي الذي حمل في مرحلة معينة تسمية «جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية»

كانت شهية الإخوان إلى السلطة وراء ضياع موقع صنعاء التي دخلها الحوثيون في الواحد والعشرين من أيلول - سبتمبر 2014 وأعلنوا حلول نظام جديد مكان النظام الجمهوري الذي أعلن في 26 أيلول - سبتمبر 1962. أعلن الحوثيون صراحة أن الإمامة عادت إلى اليمن من بوابة صنعاء التي فتحها لهم سقوط محافظة عمران معقل

خير الله خير الله
إعلامي لبناني

أن أوان مواجهة الواقع الليم في اليمن كله. في مقدم ما لا مفر من مواجهته أن العودة إلى الوحدة اليمنية لم تعد ممكنة. كذلك، يستحيل إحياء دولة ما كان يسمى اليمن الجنوبي الذي حمل في مرحلة معينة تسمية "جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية". متى توافرت الجراءة الكافية منطلقات جديدة لا علاقة لها بالماضي، يصحح في الإمكان البحث عن صيغة جديدة لبلد تشظى عملياً بعدما سقط ما كان يسمى "المركز"، أي مدينة صنعاء.

لماذا سقطت الوحدة؟ كان علي عبدالله صالح، بكل ما له وما عليه، وعليه من دون شك الكثير كما له الكثير، أول رئيس لدولة الوحدة. كما أنه آخر رئيس لدولة اليمن الواحد. تحققت الوحدة في آيار - مايو من العام 1990. عملياً، عاشت الوحدة واحداً وعشرين عاماً. هناك رأي آخر يقول إنها لم تستمر أكثر من أربع سنوات، عندما عاد الشريك الآخر في الوحدة علي سالم البيض عن نهاية الوحدة مع اندلاع حرب ربيع - صيف 1994 التي كان البيض خلالها في عدن.

تغير اليمن الواحد بعد حرب 1994 التي انتهت بسقوط عدن في يد القوات الموالية لعلّي عبدالله صالح. انتهت مرحلة امتدت لأربع سنوات كان فيها نوع من التوازن بين الشمال والجنوب، بين علي عبدالله صالح من جهة، وما كان يمثله علي سالم البيض من جهة أخرى، بصفة كونه الأمين العام للحزب

